محاضرة بـعنـوان

(الرد إلى الله ورسوله وأولي الأمر)

شَرْحُ فَضِيلَةُ الشَّيْخ

أ.د: سليمان بن سليم اللّه الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله الكبير المتعال، له سبحانه من الحمد الكمال وهو المحمود عَلَىٰ كل حال، ونشكره سُبْحَانَهُ عَلَىٰ ما هدانا إليه من صالح الأعمال، ونستغفره من التقصير في الأفعال والأقوال، وأشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الكبير المتعال، شهادة بها الفوز في الحال والمآل، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إِلَىٰ التوحيد وخير الخصال، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ صحبه والآل.

أَمَّا بَعْد؛ فمعاشر الإخوة، إن هذا اللقاء، إنما هو من باب الأخوة في الله، المقصود منه الاجتماع مع الإخوة والسلام عليهم، والاطمئنان عَلَىٰ أحوالهم، وتفقد الإخوة، وتفقدوا أحوالهم من سنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ ذكر أهل العلم أن من حكمة ذهاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ مسجد قباء كل سبت أن الجُمعة لم تكن تقام في المدينة في زمن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا في مسجده وفي مسجد قباء.

فكان بعض الصحابة يصلون في مسجد قباء، ولا يراهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الجمعة، فيبادر يوم السبت بزيارتهم، فيذهب إِلَىٰ مسجد قباء يوم السبت فيصلي فيه ويتفقد أصحابه ويزور أصحابه، وما أحوجنا إِلَىٰ هذه السنة في هذا الوقت الذي تباعد فيه الناس، وقل فيه العمل بأصول المؤاخاة، ما أحوجنا إِلَىٰ أن نتذاكرها، وأن نتواصى بها، وأن نعمل بها، ومن هذا الباب كان هذا اللقاء الذي أشرف به حقيقة أن أجتمع مع أهل الفضل وطلاب العلم، فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحقق لنا فيه المقاصد، وأن يجعل بركته علينا عظيمة.

معاشر الإخوة؛ إن هداية الله عَزَّ وَجَلَّ العبد إِلَىٰ صراطه المستقيم إِلَىٰ إتباع سبيل المؤمنين إِلَىٰ عدم مشاقة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الحرص عَلَىٰ أن يكون المسلم في شق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يكون الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شق وهو في شق، والحرص على أن يكون سائرًا عَلَىٰ سبيل المؤمنين، والمؤمنون عند نزول الآية هم صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهداية إِلَىٰ هذا المنهج الرشيد نعمة عظمى ونعمة كبرى تحتاج إِلَىٰ شكر عظيم، بأن نحرص عَلَىٰ بقاء هذه النعمة، وعَلَىٰ استمرار هذه النعمة، ومن وسائل بقائها: الحرص عَلَىٰ الاجتماع.

أول أمر: اجتماع القلوب، البُعد عن التنافر، البُعد عن توليد الاجتماع ما يؤدي إِلَىٰ الفرقة، وما يؤدي إِلَىٰ التباعد، أو ما يشغل القلوب عن المهمات، الحرص الشديد عَلَىٰ الاجتماع الصحيح الرشيد

عَلَىٰ هذا المنهج الرشيد، اجتماع القلوب هو الأصل، أن نبقى عَلَىٰ المحبة، أن نبقى عَلَىٰ النُصـــرة، أن نبقى عَلَىٰ التعاضـــد، وأن يذّب أحدنا عن أخيه في غيبته أعظم من ذبِه لو كان حاضرًا، هذا مما ينبغي أن يكون بيننا، وهو من شكر هذه النعمة، ثم الحرص عَلَىٰ الاجتماع عَلَىٰ الْأُصُـولِ، وعدم الاختلاف في فروع المسائل ما أمكن، ولا يكون ذلك إلا بتعظيم كتاب الله، وتعظيم سنة رسول الله صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوقير أهل العلم.

فكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهما الخير كله، ودلّ عَلَىٰ الخير كله، فالنور إما من الكتاب وَالسُّـنَّة، وإما مما دل عليه الكتاب وَالسُّـنَّة، فالكتاب أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ تبيانًا لكل شَيْء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

فما من شيء يحتاجه المرء في دينه إلا جاء مبينًا في باب العبادات مفصّلًا، وفي باب غيرها مؤصّلًا، فالعبادات فُصلت، وما ترك لأحد فيها قول؛ لأنها مبنية عَلَىٰ التوقيف، تؤخذ من الكتاب وَالسُّنَّة، ولم تترك لاجتهاد العلماء، وأما غير العبادات فأُصل، فصل بعضه وأُصل أكثره، فذُكر في الكتاب أصول الخير والصلاح في هذه الأمور مع ما ورد من تفصيل تدعو الحاجة إليه.

فهذا الكتاب العظيم الذي أنزله الحكيم العليم، الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، تكلم به ربنا سبحانه وتعالى وسمعه منه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسمعه لنبينا صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسمعناه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن أسمعه الصحابة، ثم نُقل إلينا بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ، ما تطرق إليه نقص، ولا تحريف، ولا سـقط منه حرف بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله تكفل بحفظه، ولم يكل حفظه إِلَىٰ أحد من الناس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

يقول ربنا سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، و(شيء) نكره في سياق النفي فتعم، وإذا سبقها (مِن) صارت قطعية في العموم، فهذا أمر عظيم، هذا الكتاب إنما هو هدى والله، لكنه هدى للمتقين، لا يهتدي به إلا من علم الله الصـدق في قلبه، من صـدق الله في الاهتداء بكتابه فتح الله عليه أبواب العلم وأبواب الفهم.

فينبغي لطالب العلم أن يُخلص لله قصدًا، وأن يصدق مع الله فيما يريده من هذا الكتاب، وأن يُحسن الوسيلة لفهمه بأن يحضـــر قلبه، ويلقي سمعه، ويبعد الصوارف عن فهمه، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ودعانا الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ الاستجابة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَإِلَىٰ الاستجابة لرسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيّنَ لنا بيانًا كافيًا شافيًا واضحًا أن حياتنا الحقيقية في الاستجابة لله، والاستجابة لرسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومفهوم المخالفة: أن الموت المعنوي، والشر في الانحراف والانصراف عمّا يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ إليه، ويدعو إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال بالنداء العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فكان الخطاب للمؤمنين، ويقول العلماء: إذا صُدِّرت الآية بهذا النداء الْعَظِيم.

فإن ذلك يفيدك فائدتين:

الفائدة الأولى: أن ما في هذه الآية من الأصـــول العظيمة، والمقامات الكريمة، التي ينبغي أن تُلقي لها سمعك، وأن تعمر بها قلبك، وأن تنير بها دربك.

والفائدة الثانية: أن ما في الآية من مقتضيات الإيمان العظمى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وكل ما دعانا الله إليه، ودعانا إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ يحيينا، فيه حياتنا الكريمة، فيه حياتنا الطيبة، فيه حياتنا الَّتِي يرضـــاها الله عَزَّ وَجَلَّ لنا، ويُرجى بها أن يرضى الله عنا بها، هذا الذي دعا إليه الله، ودعا إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصراط المستقيم، فيُحسن من قَالَ: آمنت بالله، ثم حرص عَلَىٰ أن يستقيم عَلَىٰ ما يدعو الله إليه ويدعو إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال ربنا سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}.

يقول العلماء: الصـــراط هو الذي يكون مستقيمًا، ويوصل إِلَىٰ المطلوب، ليس كل طريق مستقيم يوصـل إِلَىٰ المطلوب، الذي يوصـل إِلَىٰ المطلوب هو الصـــــراط المستقيم، فهو مستقيم يوصـل إِلَىٰ المطلوب، إن أردت أن تصل إِلَىٰ الخير في الدنيا والآخرة فالزم هذا الصراط لا غيره، فإنه الذي يوصل إِلَىٰ المطلوب، وهو صراط واحد، بيِّن، طريقه واحد: الأخذ من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفهم أهل العلم بِالسُّنَّةِ كما يأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويقول ربنا سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، هذه خلاصة ما في الكتاب وَالسُّنَّة، خلاصة الصراط المستقيم

أن تكون عَلَىٰ سبيل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألا تكون عَلَىٰ سبيل غيره مما يخالف طريقة صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا مُعظَّم يصد عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مهما بلغ أهل الفضل من فضلهم فإن فضل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم، ولزوم رِكابه هو الأسلم والألزم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالإخلاص شأني، والدعوة إِلَىٰ ربي ديدني، لا أدعو إِلَىٰ نفسي، ولا أدعو إِلَىٰ عصبية، ولا أدعو إِلَىٰ انتظام في جماعات حزبية، ولا أدعو من أجل أن أُعرف، هكذا المؤمن إذا أراد أن يكون عَلَىٰ سبيل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَىٰ بصيرة، عَلَىٰ علم، ليس تقليدًا، ولا التزامًا لطريقٍ يُرسم يُمنع من مخالفته، وإنما عَلَىٰ بصيرة، وعَلَىٰ علم أنا ومن اتبعني، ورأس، وعلامة، وأول من أتبع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الصحابة، ومن بَعدهم يُقاس بهم، فمن كان على طريقهم، عَلَىٰ نهجهم؛ فإنه عَلَىٰ طريق السلف، ومن خالف ما عليه الصحابة رضوان الله عليهم واتخذ طريقًا يخالف طريقهم لم يسر عَلَىٰ نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وهذا الطريق فيه تعظيم الله، تنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، هذا الطريق رأسه إثبات العقيدة كما في الكتاب وَالسُّنَّة، وتنزيه الله عن تشبيهات المشبهين الذين شبهوا فأولوا، وعن تأويلات المبطلين الذين جهلوا فأولوا، ورأس التنزيه توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ في أفعاله، وتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعال العباد التي يُتقرب بها، وتوحيد الله في أسمائه وصفاته، وكل دعوة تخلو من تنزيه الله، أو فيها ما يخالف تنزيه الله، وكل دعوة لا يكون التوحيد رأسها، دعوة فاشلة، ليست شرعية، مهما أثمرت فإنها لا تثمر خيرًا دائمًا، وإنما قد تثمر شيئًا عارضًا يكون ما وُجدت البيئة، فإن اختلت البيئة لحظة زال هذا الأثر.

إن شأن المؤمنين أن يكونوا وقافين عند حُكم الله، وعند حُكم رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ما كان للمؤمن إذا علم حكمه الله، وعلم حكم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يتأخر أو يتخير، بل كان شأنه أن يقول: سمعت وأطعت موقنًا أن الخير في هذا، وأن الشر في خلافه، وأن الضلال في معصية الله، وفي

معصية رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشأن المؤمن أن يقول دائمًا: سمعت وأطعت لربي، وسمعت وأطعت لرسولي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس كل من سمع مطيع، فهناك من يُعرض أصلًا فلا يَسْمَعْ.

وهناك من يسمع ولكن يقول بلسانه أو حاله: سمعنا وعصينا. نعوذ بالله من سوء الحال، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، الفلاح والفوز والعزة والنجاح إنما هي في كون المؤمن وقافًا عند ما يدعوه الله إليه، وما يدعوه إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون شأنه أن يقول: سمعت وأطعت. ولا يقول ذلك استسلامًا مجردًا، وإنما يقوله تسليمًا بإيقان أن الخير فيه، فلا يضطرب القلب، ولا يتحير اللب، ولا يكون في النفس حرج، يقول ربنا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، تسليم بلا حرج ولا تردد ولا حيرة، يقول العلماء: إذا كان هذا فيما حصل فيه شجار فمن باب أولى أن يكون فيما فيه اتفاق، فشأن المؤمنين في الوفاق والخلاف أن يأخذ بحكم الله وحكم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يجد حرجا مطلقًا في نفسه، بل هو يقين وتسليم لله ولرسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جعل الله لنا قاعدة متينةً، كليةً، يقينيةً فيها الخير كله، فقال سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} خطاب للمؤمنين، فهي أصول عظيمة تُذكر في الآية، وهي من مقتضيات الإيمان العظمى، {أَطِيعُوا اللَّهَ} طاعة مطلقة لا تردد فيها، {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} طاعة مطلقة، لا تردد فيها، ولا قيد لها، {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} أطيعوا أولي الأمر منكم لكن في غير معصية، فهي مقيدة.

ولذلك لم يُكرر الفعل هنا؛ لأنها ليست طاعة مطلقة، وإنما هي طاعة فيما يوافق الكتاب والسنة أو لا يكون معصية، فإن أمرنا ولاة الأمر بما يوافق الكتاب والسنة سمعنا وأطعنا، وإن أمرنا ولاة الأمر بما ليس معصية ولو قيدوا المباح، ولو منعوا من المستحب لمصلحة تُرى؛ فإنا نسمع ونطيع، ولو كنا نرى شيئا آخر، عَلَىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره.

قال العلماء: مما يدخل في (كره) أن يكون المأمور طالب علم، أو عالم لا يحب وقوع ما أُمر به لكنه ليس معصية، فعليه السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة في

المعصية مع بقاء الطاعة في غيرها، فالواجب هو أن نُلقي سمعنا حيث أمرنا ربنا، أو أمرنا رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أمرنا ولي أمرنا الذي جعله الله عَزَّ وَجَلَّ أميرًا علينا فكانت إمارته شرعية وهي الولاية العامة في البلد، وليست الولايات البدعية التي تنتظم بها جماعات وتجعل فيها ولايات دون ولاية ولي الأمر تصد عن طاعة ولي الأمر، فإن هذا لا اعتبار له شرعًا، فنلقي أسماعنا ونطيع، وفي ذلك خيرنا، وحياتنا، وسعادتنا، وأمننا، وطمأنينتنا، وابتعاد الشر عنا ما أقمنا ذلك.

فإن وقع نزاع كأن قيل: إن هذا الأمر من ولي الأمر معصية؛ فالواجب الرد إِلَىٰ الكتاب وَالسُّنَّة، وإذا كان حالنا أنا إذا اختلفنا رددنا الأمر إِلَىٰ الكتاب والسنة فإن حالنا سيؤول إِلَىٰ خير، والله إن صدقنا ورددنا إِلَىٰ الكتاب والسنة بالطريق الصحيح ستكون عاقبة الأمر خيرًا، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والتأويل هنا بمعنى العاقبة، فذلك خير لنا وأحسن عاقبة لنا ولغيرنا أن نرد إِلَىٰ الكتاب وَالسُّنَّة، فما اختلفنا فيه من شيء، فحُكمه ليس إِلَىٰ معظم إن قال قولاً بلا دليل لزمنا قوله، وإنما حكمه إِلَىٰ الله، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومقابل القاعدة القرآنية المتينة التي ذكرناها بيّن الله لنا حال الضالين، حال أهل النِّفَاق، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سياق الكلام عن المنافقين: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، حال أهل الضلال، وحال أهل الزلل، وحال أهل النفاق أنهم إذا جاء أمر عظيم إما أنه يسبب أمنه، وإما أنه يجلب خوفًا، تصدّروا له وأذاعوه ونشروه؛ زعماً وإشاعةً بين المؤمنين، مما يسبب الخوف، ويصدّع الصف، ويضعف الجماعة، ولو أنهم ساروا عَلَىٰ القاعدة القرآنية العظيمة، فردوا الأمر إِلَىٰ الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته لكان ذلك أمنةً لهم، أو ردوا الأمر إِلَىٰ سنته بعد موته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته نبي وولي أمر، لكن بعد موته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار الرد إِلَىٰ سنته وَإِلَىٰ أولي الأمر، وهم هنا العلماء بسنته، فيُرد الأمر إِلَىٰ السُّنَّةِ، لكن بطريق علماء أهل السنة، العلماء بِالسُّنَّةِ، مع استفادتهم من رأي الخبراء فيما ينظر إليه، إذا كان الأمر عسكرياً يستفيدون من كلام الخبراء في هذا الجانب، إذا كان الأمر اقتصادياً يستفيدون من رأي الخبراء في هذا الجانب، إذا كان الأمر طبياً يستفيدون من آراء الخبراء في هذا الجانب، ثم إذا رُد الأمر إِلَىٰ أولي الأمر

فإنه لا يتكلم فيه كل أحد، وإنما يتكلم فيه أعلى العلماء، أهل الاستنباط من هؤلاء العلماء، حَتَّىٰ لا يتشتت الناس، وَحَتَّىٰ لا يتفرق الصف فيُرد الأمر إِلَىٰ أهل الاستنباط.

أيها الفضلاء؛ إن الرد إِلَىٰ الكتاب والسنة يدَّعيه كل أحد، يدعيه أهل الأهواء، وينادون بتعظيم الدليل، والرد إِلَىٰ الكتاب، والرد إِلَىٰ السنة، ويذكره أهل السنة، ولكن الشأن في أن يطابق الحال المقال، وأن يكون الرد عَلَىٰ الطريقة الشرعية.

أهل السنة والجماعة يردون إِلَىٰ الكتاب والسنة بفهم سلف الأُمَّة، وفهم العلماء الذين يفهمون كلام سلف الأُمَّة، لا يردون بأهوائهم، ولا بعلمهم القاصر، وإنما بفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، مع الرد إِلَىٰ ولي الأمر المسلم فيما يُرد إليه، فأهل السنة وَالْجَمَاعَة صدقًا يفهمون النصوص بفهم السلف، ويفهمون كلام السلف بفهم العلماء بكلام السلف، فإن كلام السلف يحتاج إِلَىٰ من يفهمه، ولاسيما مع بعدنا عن اللغة العربية، وعن مقتضيات الفهم، فنحتاج إِلَىٰ علمائنا الأكابر ومن عُرفوا بحسن الفهم لفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

أما أهل الأهواء بدءًا من الخوارج إِلَىٰ يومنا هذا فإنهم يزعمون أنه لا حكم إلا لكتاب الله، وإلا لسنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدندنون حول تعظيم الدليل، وهم في الحقيقة لا يُصدِق حالهم قولهم، ولا يسيرون عَلَىٰ الطريق الصحيح، بل يُبعدون فهم السلف بفهمهم هم، ويريدون أن يكون الرد إليهم في الحقيقة، لا إِلَىٰ الكتاب وَالسُّنَّة، ولا إِلَىٰ الفهم الصحيح، للكتاب وَالسُّنَّة.

إذًا الشعار البيّن والأمارة البينة عَلَىٰ الرد الصحيح إِلَىٰ الكتاب وَالسُّنَّة، أن يكون مع ذلك الرد إِلَىٰ أولي الأمر من علماء أهل السنة، والرد إِلَىٰ ولي الأمر الحاكم فيما يُحتاج فيه أن يرد الأمر إليه، إن هذه القاعدة القرآنية اليقينية العظيمة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، تقتضي أن نعظم القرآن، وأن نعظم السنة، وأن نوقر علماء أهل السنة، من أصولهم وهم الصحابة، إِلَىٰ يومنا هٰذَا، شأن طالب العلم السلفي الَّذِي يسير عَلَىٰ السنة أن يوقر علماء السنة، وأن يكون مأخذ الأمور عنده عن طريق علماء السنة، يلزم هذا مهما اختلفت الأحوال، ومهما اضطربت الأحوال، ومهما اتقدت العواطف، يلزم الأخذ عن العلماء وتوقير العلماء.

أقول هذا لأني بصدق رأيت أن بعض طلاب العلم الذين يُرجى فيهم الخير وأنهم يسيرون على منهج السلف يضطربون في باب ما تتقد فيه العواطف، فيصبح عندهم جرأة عَلَىٰ العلماء، جرأة عَلَىٰ

وصف العلماء بما لا يليق بهم، وجرأة عَلَىٰ مخالفة العلماء، والميل مع العواطف، وما الأحداث القريبة منا إلا مثال لهذه القضية، تضعضع متضعضعون، وتساقط ساقطون، عن المنهج الرشيد، بسبب عواطف تثار، وقواعد تؤصل عَلَىٰ غير فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، فالأمنة يا طلاب العلم أن نلزم علماء أهل السنة، نلزم غرزهم، نفهم بفهمهم، نوقرهم، نعرف لهم فضلهم، ندعو لهم، لا نخالف كلام علماء أهل السنة.

نعم قد يخطئ بعضهم، فلا يلزم تقليد كل واحد، وإنما الأمر هو الأخذ بالكتاب والسنة عَلَىٰ حسن الفهم، لكن إذا قال أهل السنة أو قال قائل منهم ولم يُعلم له مخالف من أهل السنة، وإنما خالفه بعض أهل الأهواء، أو من عُرفوا بالعجلة، أو من عُرفوا بالتأصيل المبطل لأصول الفاسدة، فإنه ينبغي الحذر والحرص عَلَىٰ لزوم كلام علماء أهل السنة، ففي ذلك رشد المنهج، وحسن العاقبة.

كلمات أردت بها تثبيت نفسي وإخواني عَلَىٰ منهج السلف الصالح في التلقي وفي اتخاذ المواقف، في هذا الوقت العصيب الذي رأينا فيه ما رأينا، حتى نقوي الصف، ونعالج ما قد يقع من الزلل، فإن الجرأة التي رأيناها في هذه الفترة الأخيرة عَلَىٰ مخالفة العلماء، وعَلَىٰ عدم توقير العلماء تقتضي العلاج، وتقتضي الوقفة الصحيحة الرشيدة المبنية عَلَىٰ الكتاب وَالسُّنَّة.

أقول: خاتمًا بما بدأت به، إن اصطفاء الله لعبده ليكون سائرًا عَلَىٰ منهج السلف الصالح نعمة عظمى يجب عَلَىٰ من رُزقها أن يقدر لها قدرها، وأن يعرف لها فضلها، ملايين من الناس ما عرفوا هذا الطريق، إما انحراف في العقيدة، وإما انحراف في العبادة، وإما انحراف في المنهج والسلوك، فإذا اصطفاك الله إِلَىٰ المنهج الرشيد، ولا يعني ذلك أنك معصوم، لكنك عرفت الطريقة ولزمت؛ فإنها والله نعمة عظمى، أن تجد طالب علم ما وصل إِلَىٰ المرحلة الجامعية رزقه الله الاستقامة عَلَىٰ منهج السلف، وقد تجد أستاذًا لا يعرف هذا المنهج، ولا يعرف له قدرة، ولا يسير عَلَىٰ طريقه، تدرك بهذا عِظم النعمة عليك، أن الله اصطفاك وهداك إِلَىٰ هذا الطريق، وكلما عظمت النعمة ازداد وجوب الشكر عَلَىٰ هذه النعمة، فينبغي يا إخوة أن نعرف لهذه النعمة قدرها، وأن نحافظ عليها، وأن نشكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليها، وأن نبتعد عما يخل بها.

حقيقةً ما أردت أن أقول كل هذا الكلام، لكن أسأل الله أن يكون فيه خير وبركة، وأن ينفعني به والسامعين، وأن يجعلني وإياكم ممن يسيرون عَلَىٰ الحق، ويدعون إليه، ويعملون به، أسأل الله أن يجعل

بقاءنا في الدنيا عمارة لآخرتنا، أسأل الله أن يجعلنا ممن يطول عمره، ويحسن عمله، ونعوذ بالله أن نكون من شرار الناس، الذين تطول أعمارهم وتسوء أعمالهم، أعوذ بالله من أن نبقى في الدنيا لننحرف، وأسأل الله أن يجعل بقاءنا في الدنيا ثباتاً عَلَىٰ الخير، وزيادةً من الصالحات، حَتَّىٰ نلقاه وقد رضي عنا.

بارك الله في الجميع، وتقبل من الجميع، وأعاذ الجميع من كل سوء، والله تَعَالَىٰ أعلى وأعلم، وصلى الله عَلَىٰ نبينا وسلم.

جزا الله شيخنا عَلَىٰ هذه الكلمات الطيبات، وعَلَىٰ هذه المحاضرة التي تمس واقعنا، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

حقيقة الأسئلة كثيرة، ولكن نود أن نعرض ونسأل الشيخ بعرض قليل منها، وإلا فالأسئلة كثيرة.

السؤال:

يقول السائل: ما هو التعامل مع الأخ إذا فتر ووقع في المعاصي؟

الجواب:

إذا فتر أخوك؛ فإنه من البشر، وطبيعة البشر الفتور، فليست النفوس عَلَىٰ درجة واحدة دائمًا، فينبغي أن تعرف هٰذَا، ثم ينبغي أن تُدرك أنك إما أن تعينه، وإما أن تعين الشيطان عليه، فإياك أن تُعين الشيطان عليه، وكن معينا له، مذكرًا، مرغبًا، احتسب، إذا كان هناك درس مُر عليه وخذه معك إِلَىٰ الدرس، إذا كان هناك لقاء علمي مُر عليه وخذه معك إِلَىٰ اللقاء، إذا رأيت أن عنده تقصيرًا في صلاة الجماعة فاحرص عَلَىٰ أن تمر عليه، وتطلب منه أن تذهبا معًا إِلَىٰ المسجد ونحو ذلك، وذكره بلطفٍ بالاستقامة وحُسنها وحُسن مآلها، وأن الموت قريب، وأن الواحد منا لا يدري مَتَىٰ يُنادى عليه بالرحيل، وأن الإنسان إذا دخل قبره يتمنى لو دفع الدنيا كلها ليعود ليسجد لله سجده.

هذه الدنيا التي يُشغلك بعضها عن الطاعة، لو أمكنك بعد أن تدخل قبرك أن تدفعها كلها لتعود لتسجد لله سجده لفعلت، تُذكره وتذكر نفسك أنه في يوم القيامة يندم المحسن أنه ما ازداد إحسانًا، ويندم المسيء عَلَىٰ إساءته، حَتَّىٰ أن الواحد يندم عَلَىٰ مجلس واحد جلس فيه لم يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فيه، وتذكره بوزن الأعمال يوم القيامة.

وأن العلماء قالوا: من رجحت كفة حسناته عَلَىٰ كفة سيئاته دخل الجَنَّة؛ ولذلك يقولون: قد تدخل الجنة بحسنة. لا يقصدون لا إله إلا الله التي أعظم الحسنات، ولكن يقصدون الحسنة المرجحة لكفة الحسنات، فما أدراك أن حضورك للدرس العلمي هو هٰذِه الحسنة، ما أدراك أن قيامك الليلة قيام الليل هو هذه الحسنة المرجحة، كلما أردت أن تترك خيرًا قل: لعل هذا الخير هو الذي سيرجح كفة حسناتي، كلما دعتك نفسك إِلَىٰ معصية قل لنفسك: لعل هذه المعصية هي التي سترجح كفة سيئاتي. تُذكر نفسك وتذكر أخاك الذي أصابه الفتور بهذه القضية بأسلوبٍ لبق، بأسلوبٍ حسن، بأسلوب كله رحمة، كله محبة، كله رغبة في الدلالة عَلَىٰ الخير، ثم إن هناك أمر أوصي به دائمًا وهو كثرة الدعاء بإخلاص وصدق، أدع له في صلاتك، في سجودك، في آخر اَللَّيْل، أدع له بأن يُحيي الله قلبه، وينشط جسده، فتحقق المقصود، وتدعو لك الملائكة بمثل ما دعوت به لأخيك.

السؤال:

يقول السائل: إذا اختلف أهل العلم عَلَىٰ قولين ولم أفهم أدلتهما فما الواجب؟

الجواب:

إذا اختلف العلماء في المسألة عَلَىٰ قولين، فإن المسألة إما أن تكون خلافية، وإما أن تكون اجتهادية، فالمسألة الخلافية هي المسألة التي وقع فيها الاختلاف وكانت الأدلة القوية في جانب، هذه مسألة خلافية، والمسألة الخلافية الأمر فيها ظاهر، يؤخذ بالجانب الأقوى، أما الجانب الأضعف جدًّا فلا يرتب عليه حكم، حَتَّىٰ أنه في مثل هذه المسائل يكون الإنكار، فيُنكر عَلَىٰ المخالف فيها.

أما المسألة الاجتهادية؛ فهي المسألة التي يقوم فيها الخلاف وتتنازعها الأدلة، وإن قوي جانب لكن الجانب الآخر قوي، هذه مسألة اجتهادية، والمسألة الاجتهادية تمنع الإنكار وتقبل التعليم والمدارسة، فلا إنكار في المسائل الاجتهادية، ولا عيب، ولكن لا يمنع ذلك أن تدارس أخاك، وأن يكون بينكما في المسألة تعليم، فأنت تعلمه ما عندك وهو يعلمك ما عنده.

بقي إذا كان الخلاف سائغًا فإن الواجب عَلَىٰ طالب العلم في المسائل التي فيها واجب وحرام أن يأخذ بالقول الأقوى والقول الأرجح مع معرفة فضل العلماء وحفظ قدرهم، فلا يُسيء القول في العلماء، نحن نتكلم عن خلاف سائغ بين علماء لهم اعتبارهم، لا يسيء القول لأنه رجَّح القول الآخر، ولا يستهزئ بالقول المخالف، كما يقع من بعض طلاب العلم إذا رجح قولًا كان القول

الذي رجحه الحق الذي يجب عَلَىٰ جميع الخلق اتباعه، فيذم من خالفه ويستهزئ بالقول الذي خالفه، ويستهزئ بالمخالف، وليس هذا من العمل الصحيح أبدًا، فإن كان طالب العلم يعرف الأدلة وأوجه دلالتها فإنه يرجح بنفسه، وإن كان لا يعرف؛ فإنه يأخذ بترجيح من علم أنه يعرف الأدلة وأوجه دلالتها، فإن غاب هذا عنه فإنه عَلَىٰ الراجح يأخذ بقول الأعلم والأقرب إِلَىٰ حسن الفهم من غيره ممن شهد له أهل العلم بهذا، وشهد له أهل البلد بهذا.

فالقاعدة يا إخوة أنه لا يُرجح بالفضل ما دام الترجيح بغيره قائما وممكنا، لكن إذا لم يمكن الترجيح بالدليل لا مباشرة ولا بواسطة فإنه هنا يُلجأ إِلَىٰ الفضل، فيؤخذ بقول الأعلم والأكمل والأفهم، وقد يختلف هذا من باب إِلَىٰ باب، فيكون العالم في باب هو أقرب إِلَىٰ الفهم من غيره، ويكون في باب آخر عالم آخر هو أقرب إِلَىٰ الفهم من غيره، فيُحرص عَلَىٰ معرفة الأعلم والأفضل والأكمل بشهادة أهل العلم أو شهادة أهل البلد، فيؤخذ بقوله عند تعذر الأخذ بالأقوى دليلا.

السؤال:

يقول: نرى الآن التوسع في الدنيا، ما هو ضابط الإسراف في ذلك؟ أو المنع من ذلك؟

الجواب:

الحرام ما حرم الله في كتابه، والحلال ما أحل الله في كتابه، وبينهما أمور مشتبهات، فأمور الدنيا عَلَىٰ هٰذَا، إما حرام بيّن فيجب اجتنابه، وإما حلال بيّن فيجب اعتقاد حِله، وَأَمَّا العمل أؤخره قليلًا، وإما مشتبهات تشتبه عَلَىٰ المرء فهنا يجتنب المشتبهات؛ ليسلم له عرضه ودينه، وأما الحلال من جهة العمل مع اعتقاد حله، فالشأن ألا يتوسع فيه الإنسان، **هذا أولًا.**

وثانيًا: من الحسن أن يجعل الإنسان له في كل حلال نية طيبة له في كل حلال نية طيبة ليؤجر عليه، يعني في الكلام المعتاد ينوي تسلية أخيه، ينوي إدخال السرور عَلَىٰ أخيه، في الأكل ينوي التقوي عَلَىٰ طاعة الله في النوم ينوي أن ينام عن المحرمات وأن يتقوى بهذا، فمن الحُسن أن تجعل لك في الحلال، ونحن نتكلم عن الدنيا، نية طيبة.

ثم الأمر الْثَّالِث: أن تجعل لك سترة من الحلال تجتنبها، ولا تحرمها، ولا تخرقها، تجعل بينك وبين الحرام، سترة من الحلال ما تفعل هذا الحلال ولا تعتقد حرمته بل تعتقد حله، لكنك لا تخرقها حَتَّىٰ

لا تصل إِلَىٰ الحرام، وقد أُثر عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: (إني لأجعل بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرمها)، وفي رواية: (ولا أخرقها).

فجميل جدًّا أن الإنسان يجعل بينه وبين الحرام من جنسه من الحلال ما يتركه؛ لأن الإنسان إذا ترك الحلال من جنس الحرام سيترك الحرام، ويكون بعده عن الحرام أقوى، ولا نُحرم عَلَىٰ الناس ما أحل الله لهم، ولا نعيبهم بفعل ما أحل الله لهم، لكن نرشدهم إِلَىٰ السير الحسن في مثل هذا الأمر، وهنا قاعدة أنا أذكرها عادة في معاملة الإنسان لأهله: إذا أردت أن يطيعك أهلك فيما تأمرهم وتنهاهم فوسع عليهم في الحلال الذي لم يحرمه الله بما لا يضر؛ لأنك إن وسعت عليهم في الحلال كانوا أقرب لطاعتك، فهذا أمر مهم لا سيما في هذا الزمان، هذا الانفتاح العجيب، حَتَّىٰ أصبح الإنسان يغزى في بيته، عقيدة فاسدة، مناهج فاسدة، في الهواتف دعوات فاسدة، في الهواتف دعوات إِلَىٰ الشهوات المحرمة، فينبغي عَلَىٰ الإنسان أن يراعي أهله وأولاده، وإن من القواعد أن يُوسع عليهم في الحلال بنظره؛ حَتَّىٰ يطيعوه فيما يأمرهم به ويمنعهم منه، هذا ما يحضرني، واللهُ أَعْلَمُ.

جزا الله الشيخ عَلَىٰ ما قدم، وندعوكم إخواني عَلَىٰ العشاء الآن عَلَىٰ شرف الشيخ، وشرف المشايخ، وشرفكم حفظكم الله، فتفضلوا الله يكتب لكم الأجر.